سَمرة

امرأة وقلبٌ من رماد

سمرة

الإهداء..

إلى روح فقيدتي الغالية ....أُمّي

إلى روح فقيدي العزيز..........أخي

وإهدائي الأعظم :

إلى صديقي الذي لم يكن انتقاء بل كان نعمةً

أشكر الله دائماً على وجودهِ معي

غدير الزمّام

ورسالتي إليك : أنا معكَ حين يثقلُ العالم على كتفيك .

المقدمة:

غالباً ما تكون المقدمات طويلة وفي أوقات أخرى مملة

,

الأمر هنا مختلف.

أنت وفي نهاية هذه الرواية ستجد

نفسك مخدوعاً بعد مرورك بالأيام الثلاثة في المصحة

العقلية.

وقراءتك للنهاية المروعة كفيلة بتغيير قناعتك التي

كونتها خلال قراءتك.

ليست الأمور بما تبدو عليها تماماً.

لابد من وجود جانبٍ مظلمٍ في كلّ شيء

سلاماً لأولئك اللذين ترهقهم التفاصيل المتناثرة .

اللذين تقطنهم فرحة البدايات وتلتصق بشغاف قلوبهم الذكريات .

اللذين تختزن ذاكرتهم كلَّ أجزاء العمر دفعةً واحدة لذات زمن ولذات ربيع.

أولئك اللذين يؤرقهم الكلام وتسعدهم الابتسامات الخجولة .

اللذين يخفون خلف بريق أعينهم انطفائهم المتكرر , وخلف كبريائهم انحناءاتهم ,

وخلف توهجهم تجاعيد روحٍ انكمشت خلف

كلِّ فقد .

الماضي يبقى والراحلين مضوا وتركوا ما خلفهم وليس هناك من يستطيع أن ينسى وإنما يتناسى ,ولكن الحياة تمضي بهم وبغيرهم , لذا لا تجعلوا من الماضي مجرماً يقتل المستقبل ولا تصلبوا بأفكاركم كل ما هو سمحٌ جميل ,وامضوا متكئين على الله فهو السند الوحيد وهو صاحب الأمل .

لا تجعلوا حب الدنيا يعلو على حب الله , فإن الله غيور لطيف.

ولتكن كل غاياتنا إرضائه والمضي قدماً.

وما ذنبُ السراب إن كُنا نحن الأشياء المزيّفة ! وهل من فائدة للمعرفة المتأخرة ؟

على ذات الأحلام تصحو كلَّ يوم وكأنها تحيى بعيدة لإخبارك بفشلك الكبير على تحقيقها محوّلةً منك إلى شخص مختلف وبمعتقدات جديدة لا تشبهك أبداً.

وعلى نيّة إصرارك الحثيث ترنو إل كلِّ تطلعاتك متناسياً واقعك وما ارتكبت أيمانك من ذنوب عظيمة .

لترسم نهايةً لحياتك تفوق مشيئةَ الله الذي رسمها سعيدة...

وتجعل منها حفنةً مشعّة من الندم!

بفترةٍ وجيزة من الحياة تصنع ألماً يحيى بكلِّ من حولك لزمنٍ لا يمحى من وجدان الذاكرة المصابة بالزهايمر اللعين والمؤقت الذي يتناسى ما يشاء ويحفرُ بقوة الحديد الصلب ما يشاء أيضاً.

ولكن لا تنسى وأنت تحاول بأن الله يراقب .

يراقب بصمت .

صمتاً مؤلماً في النهاية.

سمرة ....جالت الأقدار بها ....حاربتها وفي نهاية المطاف رمتها.

عاندت إيقاع خطأً أزهقتها, حاربت برغم انسلال حدّ سيفها , سطعت كنور الشمس غيباً , لم تكن تلك الأشعة حادة, لكنها كانت حياة .

أبت التمّلص من قرارات إعدام الوجود بحقها , نازعت حتى الرمق الأخير ,ولم تستسلم.

شاءت ولادتها في أواسط القرن التاسع عشر وتحديداً في عام اثنين وخمسين وتسعمائة وألف ,

لم تكن ولادة طبيعية, لقد كانت أشبه بولادة

مقاتلٍ مقدام يحاول إكمال مسيرتهِ الحربية رغم أعاصير الغزاة التي جادلتهُ.

في تلك الأمسية ....عصفت الرياح بذاكَ البيت الريفيّ القديم , لم تكد تحتمل حجارته المرصوفة بالطوب على التحمّل بعد, لعلّه حاول إخماد جنوحها قليلاً.

لم تكن عناقيدُ قطرات المطرِ ضيفاً مرغوباً فيه حينها.

كانت تدخلهُ من كل فتحةٍ فيه, حاولت ضلوع السنديان الشامخة في بيتها إيقاف هذا الجنوح وباءت خاسرة .....

عتبات الطين المبلل راحت غارقة في أشداق المطر, حتى الدواب الراكدة في

الحجرة المجاورة عجزت عن تقبل تلك الجروف .

تعلو أصوات الطقطقة .وتطفو على الوجنات أصوات اللسان...

ترقص الأسنان يمينا مع شمال , وما من قصب يغني سوى الموقد. السنة نيرانه لاحت بخوف فوقه, عجزت عن تخطي جدرانه تلك الحرارة...

غارت أطباق الطعام غرقاً بحب قطرات دلف الجدار .صرخت بجيدٍ صاخب :لا أحتمل.

بكى النّواس من برد الجدار .....غابت أمانيه مع فصل الشتاء, قد نادى فتيله جوعاً ..لم

يلقى أصداء الشبع منذ مدة....

قد فارقته حزناً رغم المحبة

هامت تلك الملابس على ودّ الخشب , بقيت على الأجسام لمدة, وقف مراقباً لسعاد ......

كادت أواخر صرخات الأمطار أن تصل إلى فراش ولادتها...مخاض آلام الولادة غادرت بها تلك الأراضي الغارقة, أنستها سوء الأجواء من حولها, وكأنها كانت تتكئ على بساط الجمر...

تلوح بكفيها ,وتعلو رقصات الأصابع تعباً,

التمت حولها النساء, والقابلة تتصبب عرقاً , ادفعي قليلاً , أوشكنا على الانتهاء ......كاد الم التفكير يقتلها قبل ألم الولادة ...ولد أم فتاة

, هذا ليس بخلاف في رأيها , بل كانت تحتسب كل فكرة جالت في ذهن زوجها احمد حيال هذا الشأن, الطفل من جهة , وفي الجهة المقابلة احمد..لعل جلوسه وحيداً في الغرفة المجاورة كان خير دليل على ما رغبت به عيناه ....صمتت كل الأوهام فجأة ..وغاصت شعلة النواس ناظرة إلى ود الخشب , مسحت القابلة عرق جبينها , وتنفست الصعداء ....

لم يخفي الليل الصرخة الأولى لها وكأنها جالت كل أرجاء المكان , تبشّر بولادتها وتغني لحن عمرٍ لا تدري به شيئاً , غاصت دموع سعاد فرحاً بلقاء وليدها الأول ...تكاثرت التبريكات وغافلت بذاتها النيات

, لقد كان العناق الأول , والملاطفات شدت بسحر سمارها , بكر أبيها هي والولد الأول.

شكت جدران الغرفة المجاورة من صقيع مشاعر أحمد....وهو الذي ينتظر يوسف ..لم يستطع حالاً بالوقوف حينها , تقبل التبريكات وردها بابتسامةٍ خجولة كغرفة ولادة سمرة تماماً , لقد قالت عيناه ما عجز لسانه عن نطقه مؤخراً ...جمهورٌ غفيرٌ من الدموع الصامتة , تغنّي حزنها بقصيدةٍ صمّاء , وقفت عاجزة عن النزوح أمام جيران احمد ....

مؤخراً بعد رحيل الجميع ترّجل بإيقاع خطاً هادئة نحو غرفة زوجته المجاورة , امسك الرداء الفاصل بينهما بإصبعين هما السبابة

والإبهام, حاول سحبه بهدوء لعلّه لا يحتمل قوّة الشد من تهشّمه البائس , مثل قلبه تماماً

سحبه رويداً , بمسافة إصبعين اثنين , لم يطيق حالاً النظر في عينيها المنهكتان , عاين ببطءٍ شعرها المنثور , وبكاء الوسادة جرآء ملامسة خدّها المثقل بالأوجاع ......أسدل الستار وكان المصفقون آنذاك دموعه المرتطمة بتراب بيته الأخرق , حاول إغماض جفنيه قليلاً محاولاً النوم على أصوات بكاء وليدته الجديدة , لعلّها كانت تناجيه حبّاً بعاطفة الأبوّة النبيلة , حاولت إخطارهُ ولم تفلح في ذلك ....

مضت ساعتين من الهدوء التام ..قد غطّى

على أصوات ضجيج قلوب أهل البيت .

استنهض نفسهُ في الثالثةِ صباحاً, كان صوت بكاء طفلته عالياً , حاول إخماد انجرافه نحوها ...تقّلب يمينا استلقى على ظهره ولم يفلح, كان صوتها أعظم من أن يتناساه.

نهض من فراشهِ متجهاً نحو ذاك الستار , طواه بيدهِ اليسرى قليلاً...نظرَ نحوها بحذر , كانت عيناه تداعبانها رغماً عنه.

في تلك الأثناء كانت قد لاحت عيناه نحو سعاد .

سعاد زوجتهُ التي تزوجها رغماً عن أهلها ....مرّت أحداث هربهما معاً في بياض

عينيه , أغمضهما بحزن وراح يبكي طريقة نومها المتعبة وكأنها نازعت حتّى تلك اللحظة, قدماها الممدودتان خارج فراشها النحيل , وغطائها الصغير يغطي جزئاً قليلاً من جسدها ...

تقرّب قليلاً نحوها , ربّت بهدوءٍ على رأسها , حطمّت شفاههُ حاجز الصمتِ هامسةً بإذنها :حمداً للهِ على سلامتكِ...

في وهلةٍ قصيرة , انجرف حاله نحو الطفلة ...لم يستطع حالاً إلّا حملها وضمّها إلى صدرهِ المرتجف أظنُ أنّ ينبوعُ محبتّه قد جرى....على الرغمِ من أن داخلهُ كان ينتظر يوسف ,

لاطفَ نعومةِ خديّها ,قد كان سمارها لافتاً لأعينهِ , اجل سيسميها سمرة , لعلّ لون بشرتها يكون سبباً في تسميتها .أعاد وضعها على فراشها بالقرب من والدتها, وخرج من المنزل ليحيي أمتعته بعد راحتها , أطعم الحمار , ربط الخرج وعزم الذهاب إلى عمله حطّاّباً في القرية المجاورة .استيقظت سعاد على صوت الحمار نهضت سريعاً واتجهت نحو الباب , رأته مغادراً إلى العمل , لم تخبرها أذنيها عما حدث, ظنّت بأن أحمد غادر من دون وداع أو مباركة ....بكت بحرقةٍ حينها , حرقةٍ تجاوزت نيرانها حرارة التنور الذي يقع قرب النافذة , في تلك الأثناء كانت فتاتها الصغيرة قد

تضورت جوعاً , كان صوت بكائها مرتفع ...اتجهت إليها حملتها ووضعتها على ثديها الضئيل ..لقد كان ضئيلاً من شدة جوعها هي أيضاً, انتهت من إرضاعها , واتجهت نحو أعمالها الروتينية ....بدأت بإعداد الطحين , كان الطحين قد بدأ بالنفاذ ...لعلها ستقوم بطحن الحنطة قريباً !

أوقدت التنورَ بنيرانٍ لا تساوي ما أضرمهُ لهيبُ الحزن في قلبها ....بدأَ الخبزُ بالنضوج , وريحهُ الذاكي التفَ أرجاء المكان العتيق .

ترجّلت نحو الدواب حتى تقوم بإطعامها .أحضرت دلواً وبدأت بعدها بحلب تلك البقرةِ النحيلة .كان كلُ شيءٍ هادئاً حينها .تعالى صوتها بالغناء , قد حاولت من خلالهِ

تناسي ألمها , لم يكن ألمَ الولادةِ فقط , بل زادهُ ثقلاً خوفها على مشاعر أحمد . من خلالِ ظنها أنهُ ذهبَ من دون أن يراها .

(سكابا يا دموع العين سكابا) أعادتها عشرات المرات ولم تُمل....في تلك الأثناء كانت شمس الصباح قد سبقتها , خرجت من حجرةِ الدواب ووقفت لبرهةٍ على العتبة ...وضعت يدها على جبينها ونظرت بتمعنٍ نحو الطريق الترابي القريب .

سلب صوتُ بكاء طفلتها هدوءَ تلك اللحظة , وضعت الحليب في الإناء وأشعلت النار في الموقد كي تقوم بغليهِ , اتجهت بعدها إلى غرفتها لإطعام ابنتها الوليدة ....قامت بإرضاعها قليلاً .

داهم النعاس جفنها المنهك , تمددت على الفراش وأغمضت عينيها بهدوء . هربت إلى الحلم من واقعها التعيس ...حاولت نسيان كل شيء .

لم تطل غفوتها كثيراً , وهاهو الباب يطرق ..من هنا ؟ أجابتها أم أحمد : انهضي يا ابنتي , تعجّبت سعاد من هذهِ الزيارة ! وهي التي لم تلقى حماتها منذ عامٍ ونصف بعد شجارٍ دارَ بينهما .

هدفها من هذا القدوم غير محدد ! لم ترغب بالمباركة ولا الاطمئنان, كانت سعاد قلقة ومتوترة جداً ...جلست قبالتها أم أحمد وقالت لها: حمداً للهِ على السلامة ما اسمُ وليدتك الجديدة ؟

قالت سعاد في نفسها : ما بها ولم تقل حفيدتي !؟ قالت لها سأنتظر قدومَ والدها وهو بدورهِ سيقوم بذلك.

كانت تحاول إلهائها بأي وسيلة! لعلّ غايتها الدنيئة بدأت بالظهور ...قالت أم احمد لها :اذهبي لتفقد التنور قبل أن ينطفئ , أجابتها: لقد انتهيت وخبزت ما يكفي لنا مدة يومين اثنين ...خافت سعاد من وجودها وحيدةً قرب ابنتها , لأنها أرادت أن يكون بكر ابنها ولد!

قالت أم أحمد لها : أحضري لي رغيف خبز ثمّ ابدئي بتحضير الطعام لأحمد لعلّ وصولهُ قد اقترب .

غرقت سعاد حينها بحيرتها , قلبها غير مطمئن حيال هذا الأمر , سلّمت أمرها لله وتوكلت عليه مستودعةً ابنتها في يديه خوفاً من والدة زوجها .

جلست في الغرفةِ المجاورة وبدأت بإعداد الطعام لأحمد....ارتجفت السكين في يدها لوهلة ! أسرعت لاختلاس النظر نحو ابنتها ....وإذ بفاجعة على وشك الحدوث !! أم احمد تُخرج من جيبها ملعقة صغيرة , هذه ليست ملعقة سكر !!!

نظرت حولها كي تتأكد من خلو المكان , مدت بيدها نحو فم الطفلة . هلعت سعاد نحوها بسرعة ., صرخت بصوت مبحوح ابتعدي ....أخذتها من أمامها وعيناها قد

امتلأتا بالدموع ....ماذا تفعلين أيتها الشمطاء وما أنت تقصدين؟

خلعت أم أحمد قناع الأم الحنون ولم تستطع إخفاء بغضها وكرهها للطفلة أولاً ولأمها ثانياً,

قالت :لم أرد أن يكون لأحمد بكره فتاة , ولدي لا يريدها أنا متأكدة , أحمد يريد ولداً , أريد أن أزوجهُ امرآةً أُخرى تستطيع إنجاب طفلٍ يحمل اسمهُ.

لم يكن هذا الدافع بتزويج أحمد وحيداً بل خبّئ في طياتهِ كره والدتهِ الدفين لسعاد.

لم تستطع سعاد حالاً إلا أن تصطحب وليدتها التي لم تبلغ اليوم الأول لها إلى منزل أهلها .

ضمتها لصدرها مغطيةً إياها بدموعها , احتضنتها بقوة وراحت باكية.

خرجت مسرعةً ولم تلتفت إلى الوراء, قطعت نصف المسافةِ بين المنزلين وهي لازالت على نفس السرعة . وصلت إلى صخرةٍ كانت قد اعتادت الجلوس بجانبها مراراً . ما برحت الجلوس إلا وبدأت الذكريات تختلج رأسها الممتلئ بالخوف والحزن حد الفاجعة .

يا لها اختلاجاتٍ زائرة في غير وقتها المحدد, لعلّها تذكرت أيام الصبا ...واللقاء الغرامي الأول , لم تستطع مقاومة التفكير حيال هذا الأمر في توقيت كهذا هزّت زراعيها محاولة إسكات الرضيعة لم تفلح وقررت متابعة المسير نحو وجهتها الأولى , وصلت إلى بيت

أهلها حاملةً أوجاع ما حصل معها . وجدت والدها جالساً على كرسيّه الخشبي بالقرب من جرّة الفخّار يمارس ما شبّ عليه من الصغر وهو صناعة صوان القش . اقتربت منه باكية ها أنا ذا يا والدي ..محطمةُ الفؤاد آتية ...مالي من غير حضنك سلام . ربّت بهدوء على كتفها قائلاً : الشجرة حتى وإن كانت مثمرة ولم تظل على زوارها قد حلَّلَ قطعها . وها أنتي ذا ..زائرتي العابرة وأجود ثماري ..فكيف لي أن لا أكون ملجأ,

تنهدت بحرقه واحتارت فيما تقول . أنا يا سيدي متعبة , متعبة من كوني امرأة سيئة , متعبة من كوني حتى امرأة ...قد ذبلت كلُ معاني الحياة بداخلي , أصبحت عبيدة الوهن

ومذبحة الأحلام ....

لقد ظننتها أصعب من خيانة الجسد . وما هي إذاً؟

إنها خيانة التوقعات يا والدي !

طفلتي الرضيعة قد خانت توقعات والدها من جهة ومن الجهة الأخرى قد خانت جدتها بمنعها من إزهاق حياتها .أخبرته حينها بما حدث , بكل تفصيلة من غير نسيان سمات الوجوه أيضاً.

لقد كانت عيناه حينها ذي توهّجٍ وبريق له رونقه الخاص .لم تكن عيناه وأذناه وحدهم يصغون لحديثها ,

بل كان قلبه أول من أصغى ....عانقها قائلاً :

ما من أحدٍ قادر على إيذاء ابنتي وأنا على قيد الحياة .

حل المساء والمشاعل قد أُوقدت وألسنتها تلوح في بياض عيني سعاد . الباب يطرق والقلب قد بدأ بالخفقان حد الاختلاج , وإذ بأحمد واقف ورائه .

أين هي زوجتي أم سمرة ؟ ذهلت والدتها من سؤاله !

من تقصد يا أحمد ؟

أجابها بصوت خافت مبحوح : زوجتي لعلها لم تختر اسما لابنتي بعد فأنا قمت بذلك .

دخل إليها مبتسماً ..شدّها بيده اليمنى إليه هامساً في أذنها : أسفٌ حقاً .

قد قام ذلك العناق بما عجز عنه موقد المنزل , زاد من دفئ هذا البيت . خيمت أمسية من الحب والهدوء عليها وراحت نائمة.

استيقظت الشمس وكانت قد سبقتها سعاد ..تتقلب يميناً مع شمال وأحمد مازال نائماً . احتارت في أمرها لوهلة ! لم تعتده يطيل في الاستيقاظ هكذا. أحمد انهض يا عزيزي ما بك ؟

لم تدري حينها كم كان سعيداً في نومه هذا .

نهض من فراشه وبدأ بإشعال الموقد . كان قد تأخر عن موعد ذهابه لعمله الروتيني . سألته : ألم تتأخر ؟ هل تود قضاء اليوم برفقتنا ؟

لم يجبها بأي كلمة ...أكمل ما قد بدأه وجلس

بقربها . وضع ابنته في حضنه وهو يتربع قرب الموقد ونظر إليها قائلاً : بعد كل ما حدث البارحة وبعد الحماقات والأوهام التي دفعت بأمي لمحاولة قتل ابنتي ...أنا لن أدعكم وحيدتين بعدها.

سأقوم بافتتاح حانوت صغير بالقرب من منزلنا كي تتاح لي فرصة البقاء بجواركما طيلة الوقت لعل مواسم الحراسة والزراعة قد اقتربت وأنا لا أستطيع حالاً بعدي عنكما .

لقد كان خبراً سارّاً لزوجته التعيسة التي قاست شتاءاً كاملاً تراه فقط في الليل .

تقاذفت الآلام بعضها وتتالت الأيام ...غادر الشتاء وحل الربيع ولا يزال حانوت أحمد

على ما هو عمله فيما ندر ولكن لذة الرزق في قرب الأحبة .

داهم اخضرار المروج ربوع الأرض وبدا معه العمل الموسمي ...كان عتادهما مهيّئاً بشكل جيد من أجله.

لقد كان أول ربيع مزهر في حياة سمرة ووالدها. نهض الزوجان في ذاك الصباح ,أعدا المحراث ..أطعما الدواب ...في حين إغلاق أحمد حانوته مؤقتاً.

لقد كانت سعاد مشوشة قليلا حاول فهمها دون استطاعة منه.

نظرت إلى عينيه قائلة : كيف لنا الذهاب بابنتنا التي لم تتجاوز الشهر الخامس من العمر ؟ أين

اذهب بها أين أضعها ومع من ؟

مع جدتها التي حاولت قتلها ؟ هل من احد سيعتني بها مثلي اشك في ذلك !

في تلك الأثناء تناولت زراعا أحمد يداها ..لقد احتضنها بشدة . اجل سنصحبها معنا ,لقد كان وقع جواب أحمد لها أخف من ألم تركها لدى أي أحد .

وكان ذلك , أخذاها معهما . حين الوصول وضعتها في حضن فيء شجرة بالقرب منهما ,لقد كانت شجرة صفصاف .

قد حجبت أوراقها الخجولة أشعة الشمس عنها ولاطفتها بنسائم الربيع المنعشة ......

حُرثت البساتين ...زرعت البزور وأصبحت

على وشك القطاف وسمرة مازالت تتودد إلى شجرة الصفصاف تلك .

اشتد الصيف وسعاد تعمل جاهدة . لقد فاق جهد زوجها تفكيرها , أجل لقد شكلت مراقبة طفلتها حملا ثقيلا عليها على الرغم من انشغالها بالعمل .

بأمر وبمشيئة من الله انتهى الصيف ..حُصدت الثمار والفصول تسابقت لكي تحتسب من عمر سمرة وها هي ذا تخطو أول خطاها وتستعد لمواجهة خطايا قد أُحيلت لها من ربها عل هيئة اختبارات عنيفة .

في الشتاء التالي مباشرة ...علمت سعاد بأمر حملها , لا شيء يدعو للاستغراب فهذه هي

عادات المجتمع في تلك الأيام الغابرة وعلى سبيل المصادفة المؤلمة ..كانت ولادة سمرة في ليلة مطيرة , إلا أن ولادة أخيها كانت في ليل مثلج ...

ليست مجرد مفارقة بل كانت دليلا قاطعا لسمرة أن أبيها تحمل كل المشاق تلك الليلة ...

وكما العادة التّمت النساء في المنزل بوجود القابلة ...

واحمد جالس في ذات الغرفة التي جلس بها حين ولادة سمرة والرجال حوله مجتمعين , صراخ الطفل تعالى ..زغاريد تلوح لها الأيادي من شدة الفرح مبارك نجلك يا أحمد

..

نهض مسرعا وبدأ بإعداد الضيافة, قام بذبح ديك الحبش الذي تلاعبه سمرة يوميا وتخاف عليه أكثر من نفسها لدرجة أنها تضعه بالقرب منها حين خلودها للنوم.

في تلك الأثناء لم تكن سمرة تجاوزت العامين من العمر....ولكن ديك الحبش الذي راح فداً لأخيها أوقظ في داخلها جانباً من الغيرة . تلاحظ من خلاله انجراف مشاعر والدها عنها

.

تجاوزت واجباتها كل قدراتها ...كان على عاتقها رعاية يوسف أخيها في غياب والديها وانشغالهما بالعمل .

كانت أما له بعد أن كانت شجرة الصفصاف أما لها حين كانت في سنه .

أنجبت والدتها يوسف ويحيى وهي مازالت في العاشرة ..كانت تُعطى دروس في تربية الأطفال بدلا من أن تتلقى تعليما لدى الكّتاب .

لقد كانت مخلصة لعهد والدتها في تربية إخوانها.

وعلى الرغم من كل ما تقوم به كانت تذهب مساءا للجلوس في حانوت أبيها .

ها هي الآن سمرة في الخامسة عشرة من العمر ...وأصبحت قادرة على الزواج وفق أعراف بلادها القديمة وهي الآن أهلاً له...

تقدم شاباً ذو سبعة عشر ربيعا لخطبتها....لقد

كانت من أكثر الأفكار رعباً لديها ...تقول في نفسها : أنا سأصبح مثل أمي ...لا ليس كذلك فانا لا استطيع إشعال التنور صباحاً ولا اعلم كيفية تحضير الخبز ....بهذا التفكير

البسيط استقبلت سمرة فكرة الزواج ...لم تكن تدري صعوبة تلك الخطوة إلّا بما ذكرته .حمدان هو ذلك الشاب الذي تقدم لها ...ليس من أجل الحب ولا الحياة الزوجية ولا أي نوع من المشاعر الأخرى .تقدّم لها كي تعتني بأبويه ... هي تلك عادات المجتمع الريفي القديم فالسن المناسب لزواج الشاب هو الرابعة عشرة والفتاة في الثانية عشرة وما فوق .

تعود سمرة للتفكير مرة أخرى ..جلست على

صخرة بالقرب من منزلها..كانت قد اعتادت التودد إليها عند كل مرة تشعر بالحيرة .القرار واقع لا محالة . الزواج سيتم والرجل المناسب قد أتى ...لم تكن تلك هي كلماتها ولا أفكارها حتى ..بل كانت قرارات احمد للتفريط بابنته الذي اعتقد بان العنوسة ستؤول عليها إذا رفضت ذاك الشاب , لقد بانت لي أفكاره مضحكة قليلاً وبرأيي الشخصي طبعا وليس بصورة عامة .

قلمت أظافرها مراراً باستخدام أسنانها ..هي عادتها وأسلوبها حين الوقوع بحيرة . لم تكن تتذكر كثيراً أنَّ لديها ثلاث خيارات , أولها الزواج وثانيها الزواجُ أيضاً وثالثها حياة الجحيم التي ستعيشها إذا رفضت.

في لحظات التفكير الأخيرة ومع غروب الشمس أخذت قرارها , الزواج هو المنقذ الوحيد لها من حياة الأم الصغيرة التي تعيشها ...

ظناً منها أن حياة الزوجية ستكون اقل تعباً ومرارةً.... تشابهٌ فظيعٌ بين ألمها الحالي والمستقبلي والاختلاف الوحيد هو المنزل أي مكان التعذيب .

تقدم أهل الشاب في اليوم التالي وهم والديه العجوزان وأختهُ التي تمسك يده .

اكفهرت وجنتا سمرة لأول مرة من دون خوف ..الخوف هو زوال تلك المشاعر وتبددها ,

في حفلِ عشاءٍ خفيف وتبادلٍ لطيفٍ للأحاديث بدأ القلقُ يطفو على وجه سمرة وكأنها خائفةً من حدوثِ أمرٍ ما

التفت حمدان لأمّهِ قائلاً: لا أستطيع الرؤية وراح مغماً عليهً حاولوا جميعاً إيقاظهُ لكن حمدان فاقداً للوعي تماماً .

قاموا برشّ الماء على وجههِ , رفعوا قدميه وما من نتيجة.

حملوه مسرعين إلى العطار القريب من منزل سمرة وقد كان برفقته كل من والده وأحمد وسمرة , وصلوا إليه وطلب منهم وضعهِ ممدوداً على الأرض....نظر العطار أبو سامر إلى سمرة بلحظة من عينيه وهي تبكي وتلطم

وتولول في نفسها .

مسّد على عينيه وقال الرحمة له , جلطةً دماغية أودت بحياتهِ.

ألّتمَ الناس وعلت أصوات النواح والبكاء وسمرة في انهيار تام .

ذهنها مشوّش تماماً غير قادرة على النطق ولو بحرف واحد .

تمّت مراسم الدفن وعادت إلى منزلها برفقةِ أهلها وبعد وصولهم ببرهة جلست سمرة وحيدةً في زاوية المنزل والصدمة تأكلُ عيناها الذابلتان .

حاول أخويها إلهائها عن حزنها وطلبا منها مراراً الخروجُ إلى تلك الصخرة التي اعتادت

ولوجها حين تكون في أسوء حالاتها.

وفي النهاية وبعد محاولات عدة قبلت الخروج معهم وتجلس هناك .

كانت الأجواءُ كئيبةً حينها والرياحُ تداعبُ شجرة البلوط من خلفها.

انشغل إخوتها باللعب وبقيت وحيدة , اتجهت سمرة نحو الموقد بالقرب من مدخل بيتها وجلبت بقايا قطعٍ من الفحم المشتعل أمسكت إحداها ورسمت على الصخرة خطّاً مائلاً وراحت تتأملهُ .

لاحت عيناها نحو المنزل وإذ بالعطار أبو سامر يدخلُ إليهم , ركضت مسرعةً إلى البيت للقائهِ.

جلسوا جميعاً مستذكرين الحادثةَ الأليمة وكادت حينها نظرات أبو سامر تلتهم سمرة , وهي تحاولُ أن ترنو بنظراتها بعيداً عنهُ

دام الحديث بينهم لساعتين وغادر أبو سامر بعدها .

في ذات الليلة المطيرة والرياح كانت فيها تكاد أن تقتلعُ الأشجار من حولهم حاولت سمرة النوم ولم تقوى على فعل ذلك طلبت من والدها الذهاب إلى أبو سامر وأن يحضرَ لها شيئاً يساعدها على النوم و التخلص من أرقها .

قد أشفق عليها أحمد مستذكراً ما مرت بهِ أخيراً وقررَ الذهاب ,وصل إلى العطّار و

اخبرهُ بواقع سمرة , ثم قام أبو سامر بإعطائهِ شراباً وأخبرهُ بأن تضع ملعقة صغيرة منهُ في كوب ماء فاتر وهو سيساعدها بدوره على النوم سريعاً .

في تلك الأثناء جلست سعاد بالقرب من ابنتها

محاولةً الحديث إليها وطلبت منها مراراً بأن تبكي لتريح قلبها وهي التي كانت مكتفيةً بالصمت فقط.

قُرعَ الباب ودخل أحمد حاملاً بحوزتهِ الشراب لسمرة , اعد لها الكوب وأعطاها الشراب ثمَّ طلبت منه الاحتفاظ بالقارورة لاستعمالها فيما بعد ,

استيقظت سمرة في اليوم التالي والراحةُ تغزو

وجهها.

كانت الرياح قد هدئت والأمطار مازالت تتساقطُ على شكلِ زخّات خفيفة .

كانت سعاد مشغولة في وقد تنورها وأحمد في حانوته القريب.

أرادت سمرة الخروج إلى تلك الصخرة بعدما هدئت الأمطار ,

جلست قليلاً ثم ذهبت بعدها إلى حانوت أبو سامر لتشكرهُ على الشراب الذي ساعدها على النوم .

وصلت إليه ووجدتهُ جالساً في الداخل , ألقت السلام وجلست معهُ , بدأا يتناولان الأحاديث سويّاً .

كان أبو سامر حينها يشرب الشاي وبقربهِ موقدهُ الذي كان كفيلاً بإعطاء المكان الحرارة المناسبة.

شعرت سمرة بدوارٍ طفيف وطلبت منهُ كوباً من الماء.

نهض مسرعاً إلى الغرفةِ المجاورة وجلبهُ لها, شربت بهدوء ثمَّ جلست قليلاً.

بدا أبو سامر حينها منهكاً قليلاً , قام بوضع رجليه على الكرسيّ المقابل وبدأت أمارات النعاس تأكل وجههُ .

عادت سمرة إلى منزلها والأمطار هادئةٌ تماماً,

جلست في الزاوية التي اعتادتها مجدّداً .

في غضون المساء دخل أحمد المنزل شاحباً ركضت سعاد إليه مسرعةً ما بكَ أحمد ؟ جلس أرضاً ووضع كفيه على جانبيّ رأسهِ قائلاً أبو سامر كان نائماً في حانوتهِ في حين اشتداد النار في الموقد الذي قام بإشعاله فاحترق الحانوت بأكمله وهو نائمٌ فيه.

في تلك اللحظة كأن البرق قد قسم المنزل إلى نصفين , ارتجفت سمرة وغاصت أمسية ذاك البيت بالحزن والخوف.

نام الجميع إلّا هيَ.

استيقظ أخوها يحيى قلقاً باكياً أمهُ وخائفاً من النوم بعد تلك الحادثة .

نهضت سعاد لتجلب له كوباً من الماء وتضع

لهُ ملعقةً من ذاك الشراب الذي وصفهُ أبو سامر لسمرة , بحثت عنهُ ولم تجدهُ ذهبت لسمرة لتسألها عن الزجاجة فوجدتها غارقة في نوم عميق , لم يأذن لها قلبها بأن توقظها وهي التي كانت تعاني من اضطراب النوم مؤخراً, عادت إليه وجلست قربهُ وربتت على ظهره كي يشعر بالأمان ويستطيع النوم.

استيقظوا في اليوم التالي وقامت سعاد بإعداد الحساء لعائلتها بعد أمسيةٍ عصيبة مرت بهم

وضعت الأواني وسكبت الحساء فيها نادت الجميع ليلتفوا حولها ,

نهضت سمرة غسلت وجهها وتوجّهت إلى المائدة.

وضعت إنائها أمامها , تأخذُ الملعقةَ يميناً مع شمال , ترفعها تارةً وتعود وتنزلها مرةً أُخرى,

لم تستطع تناول أي شيءٍ منه ,

غادرت المائدة بهدوء في ظلّ نظرات والديها الحزينة لها وترجّلت نحو الخارج مقتربةً من الموقد.

أخذت منه قطعة فحم واتجهت نحو الصخرة المشئومة,

رسمت عليها خطّاً موازياً للخط الأول الذي يمثّل وفاة حمدان .

كان أحمد يراقبها من زاوية النافذة بحذرٍ تام, وجد في ابنته حزناً يساوي عالماً بأكمله,

نده سعاد وجلسا معاً يداً بيد في فناء المنزل الخلفيّ , وبدأ يشكي حال ابنته الوحيدة وتشتتها بعد كلِّ ما مرت بهِ.

قد وصل فيهما النقاش حد النهاية وقرّرا سوياً مغادرة البلدة.

اجتمع الزوجان بأولادهما مساءاً واخبراهما عن نيّة الانتقال إلى المدينة والعيش فيها والابتعاد عن كل ما قد مرّت به العائلة في الآونة الأخيرة .

لم يلقى الاقتراح موافقة الطفلين يوسف ويحيى ومع احتداد النقاش ارتفع صوت أحمد قائلاً : القرار محتوم , فلنبدأ الاستعداد من اليوم التالي .

شعرت سمرة حينها بالراحةِ قليلاً وبعضٌ من مشاعر الفرح كونها ستغادر تلك القرية قريباً ,

كانت تبلغ حينها الثامنة عشرة من العمر وكان التاريخ عام 1970.

جلست في ذات الأمسية بالقرب من راديو الترانزستور الذي جلبهُ والدها مؤخراً ,

غيّرت موجاتهُ ثلاث مرات أي ضمن المحطات الموجودة فقط وكانت الساعة حينها التاسعة وأربعون دقيقة لتجد صوتاً هاتفاً يقول (أفض خفيف الظل هذا السحر نادي دع النوم وناغي الوتر).

تخلل هذا الصوت وتلك العبارات إلى أعماق سمرة لتسأل والدها إذ كان يعلم من هي!

أجابها مبتسماً , هذه هي السيدة أم كلثوم .

وبدأت مع هذه الكلمات رحلة عشق من قلب سمرة للسيدة.

استمر الاستعداد للانتقال حينها خمس عشرة يوماً وكانت سمرة لا تطيق الانتظار ليأتي يوم الجمعة ! وتجلس بقرب الراديو لتستمع إلى أم كلثوم .

ذهب أحمد إلى المدينة ليجد منزلاً يحتضنه وعائلتهُ في نزوحهم التعيس.

جاب أرجاء المدينة , يسأل فلان ويتبع آخر الأمر محتوم.

لا يستطيع شراء منزل , ولكن يمكنه أن يستأجر آخر .

وبعد طول انتظار وجد منزلاً في إحدى الحارات الشعبية .

رأى صاحب المنزل المكون من ثلاث غرفِ نوم ومنافع البيت ضمن الطابق الثالث.

دخل المنزل وبدأ يجوبه غرفة تلو الأخرى ,وجد به غرفةٌ تطل على الشارع الرئيسي المقابل وتبعث البهجة بالنفس فجال في ذهنه فكرة إعطاء هذه الغرفة لسمرة .

عند خروج أحمد من البيت بعد رؤيته جيداً وجد شخصاً جالساً في الدار المقابل ألقى عليه السلام فطلب منه خليل جاره الجديد الجلوس .

تبادلا الأحاديث واخبرهُ أحمد بحال أسرته وما

قد مرّوا به .

وجد أحمد في حديث خليل معهُ كلَّ التعاطف والمحبة ووجد فيه الجار المناسب والملائم .

عاد أحمد والبهجة تغمر قلبه لحصوله على منزلٍ جميل أولاً وللقائهِ الجار اللطيف ثانياً .

أخبر زوجتهُ بكلّ ما حصل فازدادت سرعتهم لإتمام تجهيز متاعهم والانتقال بأسرع ما يمكن .

عندما علمت سمرة بذلك أخذت فأساً واتجهت نحو تلك الصخرة , وراحت تضربها من كل صوب واتجاه حتى انكسرت منها قطعةً بحجم كفّ اليد.

ثم عاودت ورسمت ذات الخطين المتوازيين

عليها ...!

لم يأبه أحمد لما فعلته سمرة وعدّهُ أمراً طبيعياً , لعلّها فعلت ذلك لتأخذ معها تذكاراً من بيتها .

كان كلّ من يحيى ويوسف كئيبان والغضب يلفُّ كلَّ جوارحهما هما اللذان كانا رافضين الانتقال منذ بداية الأمر.

في اليوم التالي تجهّز الجميع وأمتعتهم للرحيل,

كان كلُّ شيءٍ جيّدٍ حدَّ وصولهم ...إلا أنَّ أحمد كان منهمكاً بالتفكير في إيجاد العمل المناسب الذي سيقتاد منهُ عيشاً مع عائلتهِ الفقيرة بعد بيعهِ للحانوت في القرية بثمنٍ لا يزيد عن

مصاريف أسبوعين فقط.

فور وصولهم البيت ومع بدأهم بالترتيب وصل إليهم جارهم خليل برفقة ابنته جولا البالغة من العمر ست عشرة عاماً.

تودّدت جوى لسمرة وبدأا يتناولان الأحاديث السطحية والساذجة ,

لم يستطع أحمد إخفاء خوفهِ الشديد بإيجاد العمل عن خليل ودارت بينهما أحاديثٌ حيال ذلك الأمر .

أخبرهُ خليل عن عملهِ في السوق المجاور لمنزلهما وعن عمل ابنته جوى في مشغلٍ لخياطة في الشارع المجاور , لعلّه يرسل سمرة للعمل مع جوى فيه ويأتي هو بدوره

للعمل مع خليل .

تردّد أحمد في إخبار سمرة عن العمل خوفاً من رفضها أو خوفها من الذهاب .

بعد رحيل خليل وابنته والانتهاء مؤقتاً من ترتيب متاعهم تردّد أحمد لابنته التي كانت جالسة بقرب النافذة الموجودة في الغرفة التي اختارها لها فوجد في نفسها راحة وعلى وجنتاها تعلو بسمة الاطمئنان التي فارقتها لمدّة.

أخبر أحمد سمرة بما قاله خليل فلاقت أفكارهُ ترحيباً لديها وهي التي تبحث بأي طريقة لإلهاء نفسها عن آلامها .

وكأن الحياة تمنح أحمد وعائلتهُ فرصةً جديدة

للعيش بسعادة ولكن..!

أتت جوى في اليوم التالي لمنزل سمرة كي تصطحبها معها إلى المشغل بعد أن أخبر أحمد خليل بقبول ابنته العمل .

يبعد المشغل عن منزلهما مسافة ربع ساعة من الوقت فقط والعمل يبدأ من الثامنة صباحاً إلى الثالثة ظهراً بحسب التوقيت الشتوي آنذاك .

وصلا سويّاً وكان عصام جالساً في المدخل بالقرب من مكتبهِ المجاور وهو ينتظر هنا صباحاً إلى حين وصول كلِّ العمال .

ها أنتي ذا يا جوى من تكون تلك الفتاة الجميلة؟؟

بهذه الكلمات كان استقبال عصام لهما . سمرة وبطبعها الريفيّ لاقت ذاك الكلام بشعاً كوجهه المجعّد.

أخبرته جوى عن سمرة وعن عدم معرفتها بأمور الخياطة . فسألها عن كيّ الملابس .

نظرت سمرة لجوى وأجابتها : نعم جيّد جدّاً .

كان اليوم الأول في العمل وكانت سمرة مضطربة قليلاً حينها .

تهافتت الأيام ومرّت بسلام وسمرة لازالت في عملها تعين أسرتها وتصرف على نفسها.

وفي الرابع من آذار عام ألفٍ وتسعمائة وواحد وسبعون يوم الجمعة ويوم عطلتها أيضاً.

جلست مساءاً برفقة جوى يستمعان إلى الراديو الذي سيبث في التاسعة والنصف حفلاً للسيدة أم كلثوم .

في تلك الأثناء بدأت جوى بإخبار سمرة عن إعجاب عصام فيها , سمرة الرافضة لهُ منذ البداية ...لأنَّ عصام رجلٌ متزوج وزوجتهُ تعمل في ذات المشغل .

لكن سمرة لم تفهم إعجاب عصام , فهو إعجاب من غير زواج أي للتسلية فقط ,

أبت سمرة لفعلٍ ما اعتادتهُ جوى مع عصام البغيض .

بدأت مشاعر الخوف وعدم الارتياح تجتاح سمرة تجاه جوى وعصام وذلك المشغل.

وهي التي كانت تلاحظ أعين عصام تتعقبها في كلِّ تحرّكٍ لها .

في اليوم التالي مباشرة ذهبت سمرة وجوى للعمل كعادتهما وعند وصولهم دخلت سمرة مباشرةً دون إلقاء التحية على عصام في حين توقف جوى بالقرب منه.

أخبرته حينها عن كره سمرة له وبغضها لتصرفاته المقيتة تجاهها.

بدأ عصام التخطيط للنيل منها..ومع انتهاء وردية العمال في الثالثة إلا ربع انتهت جوى من عملها وذهبت لعصام تسألهُ عن سمرة التي كانت مازالت في غرفة كيّ الملابس ,

أجابها بأنها انتهت قبلها وطلبت الأذن بالذهاب

لتبتاع شيئاً طلبتهُ منها والدتها .

ما كان من جوى إلّا الذهاب , ومع رحيل بقيّة العمال بقيت سمرة في الغرفة بسبب بدلات تكويها لمسرحيّة عليها إنهائها في ذات الليلة على طلب عصام .

دخل إليها عصام وهي مازالت تعمل , قال لها : لقد انصرف العمال وبقينا وحدنا الآن لنقوم بحلِّ عقدة البغض بيننا ونفككها .

سألتهُ عن جوى فقال لها : لقد أخبرتها أنكِّ طلبت الأذن منّي للرحيل باكراً لتبتاعي ما أوصتك والدتك عليه...

شعرت سمرة حينها ببغيض نيّة عصام تجاهها ....اتجهت نحو محفظتها لتأخذها وترحل

فوراً, حاول عصام منعها بوضع يده على مفصل الباب مانعاً إياها من فتحه, التفتت حولها فلم تجد إلّا المكواة !!!

خرجت سمرة في الثالثة وعشرين دقيقة مساءاً متجهة إلى حانوت قريب ابتاعت منه بعض الخضار وقطعٍ من الزنجبيل الأخضر.

عادت أدراجها إلى المنزل وإذ بجوى تنتظرها على مدخل الدار,

أين أنت اخبرني عصام عن انصرافك باكراً وعدت ولم أجدك ..!

أخبرتها سمرة عن طلبات والدتها وعن خروجها لجلب الزنجبيل الأخضر الذي اعتادت شربهُ عند شعورها بألم ناتج عن

البرد .

دخلت كلّ منهما منزلها , واتجهت سمرة إلى غرفتها مباشرة , أخذت بذاك الحجر المرسوم عليه خطّين متوازيين بالفحم وراحت ترسم الخط الثالث !

اقتربت من النافذة وجلست كئيبة كعادتها بعد كلّ خسارةٍ تبرحها .

الحجر في يدها والخطوط تكاد تخرج منها وتدخلُ في صميمها الميت!

قد كانت حينها في صدمةٍ ضئيلة بالنسبة لسابقاتها التي مرّت بها .

حيث أن يدها لم ترتجف كثيراً وهي ترسم الخط الثالث. لقد كان أحمد في ذهولٍ تام ممّا

فعلتهُ ,

قد كان حاولَ مراراً فهم ما كانت تفعلهُ في منزلهم القديم بالقرية وها هو الآن يشعرُ بذات الاستغراب .

أعدت سعاد العشاء وطلبت من الجميع الجلوس كعادتهم .

أين سمرة ؟ ألن تأتي؟

احتجّت سمرة حينها بتناول العشاء سابقاً مع جوى في المشغل .

مرّت تلك الليلة بسبع ليالٍ على سمرة , تربّعت بفراشها والصخرة ملازمةً لها .

الساعة الآن الخامسة ونصف صباحاً وسمرة

لازالت مستيقظة , نهضت من الفراش واتجهت إلى المطبخ لإعداد كوبٍ من الزنجبيل الأخضر , وبدأت التفكير ...خاضت أفكاراً أشبه بالحروب , تناقضات تشوب ذهنها المشوّش , هل تذهب مجدّداً إلى العمل ؟ هل سيكون هذا اليوم كسابقاته من الأيام التي خلت؟

في تلك الأثناء استيقظ أحمد لتهيئة نفسه للذهاب إلى عمله.

غسل وجههُ المنهك , أجل لقد كان منهكاً من حزنٍ يجتثُّ أطراف الأمل والحياة لابنتهِ.

اقترب وجلس بالقرب منها .

صباحُ الخير يا ابنتي , أنا هنا كنجمٍ مضيءٍ

في عالمك المظلم , أنا هنا كرداءٍ واقي أمنع الحزن من احتلال قلبك اللطيف , سوف أبقى كذلك دوماً , إن أردتي إخباري بأيّ شيء فأنا أستمع .

احتضنتهُ سمرة بقوّة وراحت باكية على كتفهِ المريح ....لطالما وجدته مريحاً حين اتّكاءها عليه.

قُرع الباب وجوى بانتظار سمرة للذهابِ سويّاً
.

على مسافة الطريق البالغة ربع ساعة لم تتفوّه سمرة بحرفٍ واحد على الرغم من انهماك جوى بأحاديثها التي اعتادت تكرارها كلَّ صباح.

عند بلوغهم بداية الشارع الذي يحوي المشغل لفت انتباههما تجمّع الناس حول المكان , تعلو أصوات رائدة زوجة عصام , تبكي وتلطم , لقد مات يا إلهي ارحمني لا استطيع التحمّل أكثر .

وعلى وقع تلك الكلمات غابت سمرة عن الوعي تماماً لتجد نفسها محاطةً بالناس اللذين يحاولون إيقاظها , شربت قليلاً من الماء وسألت ماذا حصل ما الأمر أين جوى .

أخبرها الناس حينها بموت عصام في مكتبه داخل المشغل .

اقتربت سمرة بعد استعادتها لوعيها تماماً من رائدة .

أخبريني أرجوكِ ما الأمر كيف حصل ذلك ,

وضعت رائدة يدها بيد سمرة , شدّت عليها بقوّة و أخبرتها .

يا سمرة عصام يغلق المشغل في الثالثة وعشر دقائق ويحتاج إلى عشرين دقيقة للوصول إلى المنزل ,

وأنا أنصرف من هنا في الثانية والربع لأقوم بتحضير الغداء وتنظيف المنزل إن كنت قد أهملتهُ في اليوم السابق .

وكعادتي في الأمس غادرت المشغل ووصلت البيت وبدأت بتحضير الفاصولياء على طلب عصام , حضّرتُ الغداء ورتبت المائدة على توقيت وصولهِ , انتظرت وانتظرت ولم يأتي

, أصبحت الساعة الخامسة وهو مازال في المشغل كلّا فلم يفعل ذلك طوال التسع سنوات الماضية, قرّرت أن أذهب إليه لأرى سبب تأخيره ذاك , وصلت المشغل وإذ به مغلق والظلام قد حل وما من أحد هنا , لم انتبه إلى القفل إن كان موصداً أم لا .

عدت أدراجي والقلق يأكل أفكاري المشتّتة والخوف يتغذى على قلقي حيال ذلك الأمر .فهو لم يعتد فعل ذلك أبداً .

وصلت المنزل على أمل لقائه ووصوله بغيابي , ولكن لم يأتي بعد, جلست بالقرب من النافذة المطلة على الطرق وأترقب قدومهُ.

الساعة الآن التاسعة والربع وأنا لازلت مشتتة

ولا أعلم ما أفعل , لوهلة تذكرت صديقه حاتم الذي اعتاد مجالستهُ في القهوة المجاورة . ذهبت إليه فلم أجدهُ في منزلهِ فقررت التوجّه إلى القهوة لعلهما هناك .

دخلت القهوة وسألت عن عصام فأخبروني بعدم قدومه اليوم .

لم أرى حلّاً سوى العودة إلى المنزل والانتظار مرّة أخرى.

وصلت وجلست على ذات الكرسي مترقبةً له.

لم أجد نفسي إلا على ذات الكرسي في صباح اليوم وكانت الساعة الثامنة وخمسين دقيقة , فهرعت مسرعةً إلى المشغل لعلّهُ عاد وافتتحه اليوم.

وصلت والمشغل مازال مغلقاً وبعضٌ من العاملات بالقرب من الباب , نظرت حينها إلى الأقفال فصُدمت بوجودها مفتوحة , دفعت الباب بقوّة ودخلت فكانت الصدمة, وجدت عصام مستلقياً في مكتبهِ وغائباً عن الوعي حاولت إيقاظهُ ولم أُفلح,

بدأت بالصراخ وقمت بطلب النجدة , وصل الإسعاف وكانت الفاجعة , اخبروني بوفاته من سبع عشرة ساعة .

سبع عشرة ساعة أي من وقت إغلاق المشغل وتذكرت مجيئي إلى هنا ومروري به وهو ميت آهٍ فكيف لم أشعر به يا سمرة من فعل بزوجي ذلك , من هو المجرم يا الله, عصام لا يستحقُ كلَّ هذا.

في تلك الأثناء وصلت الشرطة وبدأت التحقيقات منتظرة في نفس الوقت وصول تقرير الوفاة .

لقد توفي عصام بضربة على رأسه والمسعفون وجدوه بارحاً أرضاً وكأنهُ وقع وارتطم رأسهُ بحرف المكتب ومع وجود آثار ماء مختلط مع منظفات الأرضية تأكدت الشرطة من وفاته بسبب وقوعه.

وبعد تلك الحادثة أغلق المشغل لأسبوعين متتالين .

على نيّة إعادة فتحهِ من قبل رائدة زوجة عصام .

أسبوعين ولم تبرح سمرة فيهما غرفتها, كئيبة

, قلقة وحزينة

حتى أن جوى لم تزر سمرة طوال تلك الفترة بغير عادتها.

وعلى أية حال انقضت تلك الفترة بسلامٍ تام لم يتوقعهُ أحد.

بدأت سمرة بالتفكير حيال العودة للعمل . وقبل يوم من إعادة فتح المشغل كانت سمرة جالسة كعادتها بقرب النافذة المطلّة على الشارع وكان الحانوت الذي يقابلها مغلق كعادته من وقت انتقالهم بعد وفاة صاحبه .

إذ بعربة ركنت بالقرب منه ونزل منها شخصان الأول منهما رجلٌ كبير في السن والآخر يبدو أنه ولدهُ أو عاملٌ لديه ,

راقبت سمرة بصمت تام في حين إنزال الأغراض من العربة وفتح الحانوت المهجور .

وبعد مرور تلك الليلة وفي وقت ذهاب سمرة وحيدة إلى العمل مرّت بالقرب من ذاك الحانوت ورأت رجلاً كبيراً يقوم بترتيب كراتين الخضار .

ألقت التحية عليه , هل أنت من أقرباء أبو محمد صاحب الحانوت ؟

أجابها: كلّا فقد قمت باستئجار هذا المكان من زوجته لنعمل به أنا وولدي عامر ,

خرج عامر من وراء الستار الفاصل بين المحال وبين المستودع الصغير في الخلف

وبيده كوب القهوة الساخن لوالده.

ألقى التحية عليها ولكن . تحيةً ليست بالكلام وليس مستخدماً للحروف الأبجدية , بل استخدم سلاماً بلغة جديدة لم تعتادها سمرة من قبل , وكأن الأعين حين تلاقت تكلّمت بصمت

,

ارتبكت حينها سمرة وغادرت المكان فوراً.

لتصل إلى المشغل بعدها وتبدأ عملها الذي انقطعت عنهُ من جديد.

التقت بجوى وكان لقاءاً عابراً لم يتكلمان أبداً كغير عادة جوى التي اعتادت على الثرثرة الحثيثة صباحاً.

انشغلت سمرة بعملها ولم تعر موضوع جوى

أيًّا من انتباهها.

لقد كان جلُّ انتباهها وتفكيرها يصبُّ على ذاك اللقاء الذي سرق كلَّ حواسها وتركها عمياءً لا ترى شيئاً بعد تلك النظرات الخاطفة من عامر .

يداها تعملان وذهنها متوقّفٌ تماماً ,

سمرة أنا هنا ما بكِ , سمرة لقد جلبت لكي القهوة , هل أنتي منزعجة منّي لهذا الحد,

أرجوكِ .

وكأن تلك الكلمات لم تدخلَ أُذنيّ سمرة ,

ها ماذا أنا أسمع .

وكأن سمرة استيقظت من حلمٍ ورديّ بعد

عبارات جوى تلك .

ما بكِ يا سمرة أنا هنا أحادثك من دقيقتين وأنتـي غائبة تماماً.

لا يجوى ولكن حادثة موت عصام قد آلمت تفكيري مؤخراً.

جوى: أوافقك الرأي فأنا لازلت مصدومة ولا أستطيع التفكير في الأمر حتـى .

انتـهى ذاك النقاش البسيط بعودة كلّ منـهما إلـى عملها .

ومع انتـهاء يوم العمل تجهزا سويّاً للعودة وخرجا من المشغل .

كانت سمرة ترى في كلِّ نظرةٍ من عينيـها عينا

ذاك الشاب وكأن العالم كلّهُ قد انطفئ واشتعلت بصيرة قلبها بذلك اللقاء العابر.

وفي الطريق وقبل وصولهم لمنازلهم كان لابد من المرور بالقرب من ذاك الحانوت وكان ذلك الأمر الشيء المحبب فقط بالنسبة لها .

تمشيان سويّاً وخطى سمرة تلوح بها يميناً مع شمال وكان الاتكاء بحجة التعب على كتف جوى أمراً ضرورياً للحفاظ على توازنها المختل.

مرّوا بذاك المكان وتكاد عينا سمرة تلتهمان تفاصيله البسيطة وتسبح بناظريها بحثاً عن رؤية عامر ,

وباءت تلك المحاولة بالفشل , لم تتقبل حينها

سمرة طعم الهزيمة و توقفت قليلاً وقالت لها أنها تريد شراء بعضاً من الزنجبيل الأخضر , استغربت جوى حينها لأن سمرة اعتادت شرائه من مكان آخر واصفةً إياه بأفضل زنجبيل وجد في تلك المدينة وهذا الحانوت جديداً ومن غير المعقول وجود الزنجبيل لديه

,

وافقتها واقتربا سويّاً , ألقت سمرة السلام , مرحباً يا عماه أنا التي مررت بك صباحاً , هل لديك الزنجبيل الأخضر ؟

وبعد معرفة العجوز لها أجابها بنعم وأشارَ إلى صندوقٍ على يسارها يحتوي الزنجبيل الذابل والغير طازج , وفي تلك الأثناء ظهر عامر من خلف ذات الستار وبدأت سمرة بالذوبان

في تفاصيله الفاتنة فهو طويل القامة ذي شعرٍ أسود وبشرته البيضاء قد كانت أول شيءٍ ذي بياض ترمقهُ عيناها التي اعتادت على سواد الرؤى .

أخذت سمرة الزنجبيل الذابل بعدما دفعت ثمنهُ وخرجت إلى جوى التي كانت تنتظرها,

كانت جوى في دهشةٍ تامة من ذاك الزنجبيل ,

سمرة أحقاً هذا أنت؟؟ ما بكِ و أنتي التي كنتِ تجادلين أصحاب المحال على الزنجبيل الطازج و تشترين الآن زنجبيلاً ترفضهُ الدواب ؟

أجابتها بتنهيدةٍ خرجت من أعماق قلبها الجاف

: هذا أفضل ما قد أحصلُ عليه يا جوى.

وهي التي لا تدري عمّا قد حصل حتى أغشيَ على قلب سمرة حتى اشترتهُ.

وصلت سمرة إلى المنزل وبعد تناولها العشاء ببهجةٍ استغرب منها والديها كغير عادتها , ذهبت وجلست بالقرب من تلك النافذة المطلّة على حانوت عامر واضعةً بيدها قطع الزنجبيل الذابلة , راحت تشمّها مراراً وتكراراً وكأنها لأول مرة تشتم الزنجبيل , ومع كل شهيقٍ تتذكرُ من أغواها بشرائه .

في ذاك المساء اشتدّت الرياح وبدأت أصوات الصفير تسيطر على الموقف وكأن سمرة تسمعها نغم في قبالة ذلك الحانوت .

خرج عامر مسرعاً ليقوم بوضع الخضار في الداخل وإبعادها عن غبار الرياح , رأته سمرة واقتربت بكثرة من النافذة الزجاجية ليكاد رأسها يكسر الزجاج ويصبح خارج النافذة ,

تراقبهُ بتمعن وبحواسها أجمع.

ففي الركن البعيد خلف الليل وتحت ضوء القمر الساطع ومع صفير الرياح نسيت وجهها الذي كان مملوءاً بالتعب وأخذتها الدروب إلى حيثُ لا تدري , ومازالت صورهُ تحاصرها من كلِّ صوبٍ, بيدها احتضنت قطع الزنجبيل كالمجوهرات الزرقاء السماوية, ومضت كشهابٍ مضيء,

عالقةً الآن بين الابتسامات المتبعثرة ,

ولحظات اللقاء تجتاح مخيلتها , وراحت عيناها تطاردُ أطيافه الزئبقية كإنسانٍ من الغجر لا أرض تتسعُ لمنفاه ولا هويّة!

كانت تراه في بريق النجوم البعيدةُ والحرة وهي التي تضيق بها الحياة .

مع مرور الأيام وذهاب سمرة للعمل وعودتها من قبالة عامر ومع ضجر النافذة من كتمان مشاعرها كان عامر قد غرق بها حبّاً كذلك.

وفي يوم محدد عادت سمرة من العمل وبعد تناولها الطعام تذكرت الزنجبيل ,

وهل وحده الزنجبيل الذي تذكرته فقط؟

أخبرت والدها بخروجها إلى الحانوت المقابل لشراء البعض منه,

خرجت وبكلِّ قواها كانت مستعدة للقاء عامر لأول مرة برغبتها النابعة من إرادتها في إخبارهِ عن إعجابها به.

وصلت إليه وجدتهُ وحيداً بعد رحيل والده ,

وبعد إلقاء السلام ...أتريدين الزنجبيل؟

عامر: لقد اكتفيت من ذاك الزنجبيل من يوم لقائك الأول , وما حاجتي له بعد ان أصبحت تلك النافذة المطلّة عليك هي زنجبيلي الأخضر , وبعد أن أصبحت عيناك هي الماء الدافئ الذي يغمر قلبي مذوّباً كل الجليد الذي حاصرهُ لسنوات .

أنت أولُ شخصٍ أفتح له قلبي هكذا أول شخصٍ أصدمهُ بصراحة الشمطاء حياله , أولُ

شخص يأتينـي فـي جميع الكلمات ,وأولُ شخصٍ لا أستطيع صدَّ قلبـي عنـه, أول من أغفو وأنا أفكر به واستيقظُ وهو فكرتـي الأولـى .

شكراً لكونك الزنجبيل الأخضر .

رحلت سمرة بعد قولها ذلك مباشرة ولم تنتظر حتّـى جواباً منه على ما قالتـه ,

فهي اكتفت ببريق عيناه ورحلت تاركةً الصمت يلتف أرجاء المكان.

غادرت والكلمات لازالت عالقة بشفاه عامر تنتظر البوح , وأنا أيضاً يا جميلتـي ....

وبعد إعدام حق الرد بقيت سمرة تنتظره من عامر وهي التـي لم تسمح له بالتفوه بحرفٍ

واحد.

وبعد مرور يومين على تلك المصارحة , جلس عامر ينتظر سمرة في الثالثة تماماً بالقرب من باب منزلها ومع علمه بوجود صديقتها معها لم يأبه وقرر الانتظار .

وصلا وكانت سمرة تراه من بعيد منتظراً لها.

وحين وصولهم إليه , قال عامر مرحباً هل يمكنك القدوم معي لإعطائك المال الذي وقع منك منذ يومين في حانوتي ؟

علمت سمرة بعدم وجود المال وأنها حجةً إختلقها لأنه لا يريد التكلّم أمام جوى ,

قالت له بلى شكراً لك وطلبت من جوى بأن تسبقها لتعود هي وتجلب المال .

عادت برفقته ووصلا إلى الحانوت .

أعطاها قطعة من الزنجبيل وقال لها ضعيها في يدك.

وهل للزنجبيل بأن يحيى بغير الماء ؟ فيا لهُ من عطشٍ إليك و يا لك من ماءٍ عذب أحتاجه كي أحيى ,

شكراً لكونك الحياة وشكراً لمناداتي بالزنجبيل الأخضر.

في الحديقة الربيعيّة المتمركزة في شارع الأبرار , أود لقائك غداً في الساعة الرابعة.

وكانت تلك الكلمات ختام اللقاء المزيّف .

عادت سمرة والتفكير يشغل بالها , ليس تفكيراً

باللقاء ولكن التخطيط للذهاب وإيجاد العذر المناسب هما المشكلة.

هل ستخبرُ جوى ؟ وكيف تأتي بالحجة المناسبة من أجل هذا .

قررت بعد التمحيص والجلوس لساعات قبالة ذاك الحانوت بأن تذهب للعمل كالمعتاد وتطلب الأذن من رائدة قبل موعد إغلاق المشغل بربع ساعة كي تذهب وحدها ولا تراها جوى .

وستخبر عامر في اليوم التالي صباحاً بتأخير الموعد ساعة من الوقت ليصبح في الثالثة كي لا تنتظر وحدها كثيراً ,

وكان ذلك , أخبرت عامر وذهبت للعمل وكلٌّ

شيءٍ يسير على ما يرام,

وقبل انتهاء العمل طلبت الأذن وأخبرت رائدة بضرورة خروجها فوافقت على ذلك ولكن نتيجة ارتباك سمرة الشديد قلقت رائدة وشعرت بأمرٍ غريب وبعد خروج سمرة مباشرة أخبرت رائدة جوى لتلحق بها خوفاً عليها ونتيجةً لارتباكها وهي تطلب الأذن منها,

خرجت جوى مباشرة لتراها على بعد مسافةٍ قليلة من الاتجاه المعاكس لطريق العودة ولحقت بها من دون أن تراها , مشت ورائها لربع ساعة دون أدنى فكرة من جوى على ما يختلج في بال سمرة .

وصلت سمرة إلى حديقةً تعرفها جوى مؤخراً , وماكان منها إلا التربص مختبئة لترى ما الأمر ,

جلست سمرة تنتظر لنصف ساعة وإذ ب عامر يتودد إلى الحديقة وإلى ذات المقعد الذي تجلس عليه سمرة .

بدأت جوى التفكير للنيل من سمرة والتخطيط للأمر الذي ستفعله .

جلس عامر بجوار سمرة والأعين تلاقت قبل الأجساد , تاركةً لذةَّ اللقاء المادي للجحيم ,

قال لها حينها:

ثم تقابلنا لأكثر من مرّة غرباءً وبدأ ذاك الشيء الصغير يولد بيننا , لم أقل قط رغم إعجابي

الشديد ودنوّ عاطفتـي إليك بأنـي أُحبكِ,

لكن هذا أجمل ما في الأمر وكأن بعض الكلمات تتعرض لانتهاء الصلاحية إن استخدمت كثيراً , أكثرُ الناس تشدّقاً بكلمة أحبك هم اللذين يدمرون الحب دون توقّف ,ولكن أنا سأتبعك لنهاية العالم كي أثبت حبي من دون الكلام يا سمرة.

قالت سمرة :

الحب كلمة من ضباب تذوب عند انبلاج الصباح مشاعر ظرفيّة تزول بالكذب!

لا يقدر النسيان احتلال ذكريات اللقاء برغم كل تجاويفها العميقة ,

وكأن اللقاء يرسم الخط الأبدي للعلاقة ويعطي الصورة المثلى للحب ,

وكانطباع ورق الأشجار على سطح الماء نرسم الحب في حنايا قلوبنا ,

ولكن هل نحن من نذهب للحب بعد اللقاء ؟

كلّا ياعزيزي , بل هو قدرٌ لا يخطئنا ويعلم جيداً من ومتى يرمي بسهامه, فحين تهوى ستنجرف بمشاعرك كلها ولن تقف لتفكر في مصيرك بعد هذا الهوى .

لن تتمكن من الوقوف للحظة حتى لالتقاط أنفاسك , سترى الحياة كلها في وجه من تحب

,

الإعجاب يخطفك فجأة دون إنذار ويطير بك فوق السحاب أو يدفنك تحت التراب !

لن يمنحك وقتاً للتفكير, فكن صادقاً ومخلصاً في مشاعرك وحافظ على حياتك بحفاظك على من تحب.

وبجواب نبيلٍ منه قال:

إننا لا نختار من نحب ولا من يسكن قلوبنا , إنما هي لعبة الأقدار يا سمرة .

القدر يعزف علينا سيمفونيته وما لنا سوى الإنصات بالرضا والصبر , وإن أبينا واعترضنا سيصفعنا بسياطه حتى نلين .

انتهى ذاك الموعد الشجي بعبارات الحب الهاتفة وحان موعد الرحيل.

ذهب كل منهما باتجاه وترجلّت سمرة على ذات طريق المشغل من أجل العودة .

وجوى في تلك الأثناء كانت قد سبقتها إلى منزلها هي لتخبر والد سمرة أحمد بما حصل

بعدما كانت سمرة ترفض مواعدة عصام وكي تصفع بها كرهاً لذلك الموقف .

أخبرت أحمد بكل شيء ولا يسع أحمد الآن سوى الانتظار للنيل من فعلة ابنته المنكرة التي ستنال من سمعته على حد تفكيره .

دخلت سمرة المنزل لترى والدها جالساً على الكرسي قرب الباب وجوى معه.

أين كنتِ ؟ لا تقولي في العمل لقد أخبرتني جوى بذلك الوعد الغرامي مع بائع الخضار.

وهل لديك ما تقولينه لي لا أظن ذلك .

نظرت سمرة إلى والدتها سعاد التي تقف جانباً والدموع تنهار خوفاً على وجنتيها لتعود كفيها وتمسحها وهي تلطم خدها.

لم تتفوه سمرة بأي حرف وكأنها كانت تعاتب جوى بعينيها على فعلتها .

لم يطل الأمر كثيراً حتى بات ظاهراً على أحمد نيته الوحشية .

أمسكها بشعرها وراح يضربها من كل صوب وناح.

لم تبكي حتى وكأن لذة اللقاء أنستها ألمها .

وعلى ذات الجانبين كانت العصا تلتف وصراخ سعاد يملأ الأرجاء , ارحمها أرجوك من أجلي يا أحمد اضربني أنا ...

تلك الضربات لم تؤلم سمرة بقدر ما ارتكبته جوى , وكانت وهي في يد والدها الذي يبرحها ضرباً تفكر في الانتقام منها .

انتهت تلك المسرحية الدامية بحبس سمرة في غرفتها ومنعها من الخروج منها .

وكأن أحمد بعد تلك الحادثة قد تجرّد من إنسانيته وحبّه لابنته.

سمرة الجالسة في غرفتها تحمل في يدها ذاك الحجر المرسوم عليه ثلاثة خطوط سوداء

راحت ترسم الخط الرابع ببعض قطرات الدمّ من رأسها نتيجةً لتلك العصا التي نالتها من والدها.

جلست بقرب النافذة مناجيةً لحانوت عامر المغلق باكراً.

وكأنها كانت تناجيه ألماً قد حلَّ بها بعد لقائه.

في اليوم التالي وبعد ذهاب والدها الذي أنذر سعاد من السماح لها بخروج ابنتها من المنزل طلبت سمرة من أمها أن تأتي بجوى لرؤيتها والحديث إليها .

لم ترى سعاد في هذا الطلب سوءاً وذهبت لجوى كي تحضرها .

دخلت جوى إلى سمرة لتجدها جالسةً بالقرب من تلك النافذة المفتوحة .

سمرة لم أستطع إخفاء الأمر عن والدك بعد رؤيته لي قادمة من المشغل وحدي.

لا عليك يا جوى فالأمر انتهى بالأمس , ومع اقتراب جوى لعناقها أخذت سمرة بذاك الحجر وضربتها به على رأسها حتى فقدت جوى التوازن وقامت برميها من تلك النافذة.

دخلت سعاد مسرعة بعد سماعها لأصوات جوى وهي تستغيث قبل رمي سمرة لها , ماذا فعلتي ها يا سمرة ماذا فعلتي يا الله لقد جُنّت

تلك الفتاة.

انتهى كلُّ شيء وسمرة صرخت قائلة : ها أنا ذا انتقم ....

هلع الناس لجوى التي توفت إثر سقوطها وأرسلت سعاد ابنها ليخبر أحمد ويأتي به من عمله.

اقتحم خليل والد جوى المنزل محاولاً الوصول إلى سمرة وقتلها ,

ومع وصول أحمد صرخ فيه قائلاً : أنا من سينهي كلَّ شيء.

وصلت الشرطة وسمرة جالسة في غرفتها بعد أوصدت الباب في وجه والدها ,

ومع علم سمرة بدخول الشرطة لمنزلها أمسكت بتلك الصخرة وألقت بنفسها من ذات النافذة محاولةً بذلك الانتحار ولكن!

بعد مرور أسبوع كامل على تلك الحادثة كانت سمرة تخرج من المستشفى ليتم نقلها بعد ذلك إلى المصحة العقلية نتيجة ارتجاجٍ في الدماغ أصابها إثر السقوط وهي لا زالت متمسكة

بذاك الحجر الذي أفلت من يدها بعد سقوطها وإعادته إليها من قبل والدتها ظناً منها بأنه يحمل الفرح لسمرة التي بقيت غائبة عن الوعي لمدة ثلاث أيام.

وبعد دخول سمرة المصحة العقلية تم وضعها في غرفة مع امرأةٍ أخرى .

في الساعات الأولى لوصولها بقيت سمرة صامتة ولم تتكلم إلى ناهد المستلقية على السرير المقابل ,

تتفحص ذاك الحجر وتمسح عليه بيدها وكأنها تلاطفهُ.

اقتربت ناهد منها وجلست على جانب سرير سمرة , مرحباً أنا هنا من فترة طويلة ولا أملك

حجراً .

لا أملك شيئاً ....

أنتي ما بكي تكلّمي إليّ,

كانت سمرة تنظر إليها قليلا وتعاود النظر إلى حجرها.

ولم تتحدّث لها أبداً.

حل المساء ولا زالت ناهد تراقب سمرة وقد ازداد فضولها بعد رؤية الخطوط الأربعة المتوازية على الصخرة .

اقتربت منها مجدداً وسألتها : لماذا ترمز تلك الخطوط ؟

أخبريني نحن هنا سنحيى إلى الأبد سويّاً.

ناهد ورغم الإعاقة العقلية التي تعتريها إلا أنها كانت تجيد الكلام ودقيقة الملاحظة .

نظرت سمرة إليها بحزنٍ وقالت : تلك الخطوط هي مأساتي التي عشتها .

هي الحروف الصامتة التي تروي خيباتي وتذكّرني بها .

ما اسمك أنت ؟

أنا اسمي نهاد وأنتِ؟

أنا اسمي سمرة ....سمرة التي نالت منها الحياة مؤخراً ورمت بها في هذه المصحة لتقضي آخر أيام حياتها الكارثية .

صديقتي الحياة ليست لطيفة غالباً, تكاد

فرصها المزيفة تغتال كل معاني الفرح في داخلنا .

عطائها المزيّف و أملها البائس يبدوان كنهايةٍ ترسم لنا ونحنا نسير إليها دون توقف أو حزر ,

هل يظنُّ أحدنا برغبة القدر في منحه شيئاً عبثاً ..كلّا فهو عقدٌ بين اثنين يعطيك ويأخذ منك أمثال ما لديك .

الخطوط وتلك الصخرة:

لقد كانت مرآةً لانكساري المتجدد , أرى نفسي فيها بعد كل هزيمةٍ تلحق بي .

أرسم الخط المائل وأعلم أنني أخسف من عمري سنيناً برسمهِ , وأخسف معهُ حياة شخصٍ آخر...

كنت أظنُّ أنّ لجوئي إليها قد يخفف قليلاً من الآلام التي كانت تعتريني بعد كل حادثة.

الخط الأول:

لقد كنت صغيرة والحياة قد قست علي من جانب العاطفة .

تقّدم لخطبتي شاب اسمهُ حمدان , لم يكن سيئاً تماماً بل كانت ظروفه السيئة سبباً لكلّ شيء.

لم يرد الزواج بي من أجل المحبة أبداً, لقد كانت غايتهُ هي خدمة والديه العجوزين ويحتاج لفتاة تقوم بذلك,

لقد كان مناسباً بالنسبة لأبي ومناسباً جداً , وكان القبول شبه محتوم .

لم أجد حالاً سوى الرفض , لقد أخبرت والدتي مراراً ..أرجوك اقنعي والدي أنا لست موافقة .

لقد كان لسان حال أمي كحالي لا يلقى السمع من قبل والدي المصرّ.

كان في حينا آنذاك عطاراً يدعى أبو سامر ,

لجأت إليه وأخبرتهُ بما يحصل وطلبت منه شراباً يفقد الوعي كي استطيع أن أحتجَّ به بعد إعطائه لحمدان .

لكن لقد أصر عليّ أبو سامر بأن أضع ربع ملعقة صغيرة فقط .

من فرط حزني ورغبتي في التخلص منه وضعت ملعقة كبيرة في طعام حمدان حتى تناولهُ وأصيب على إثره بجلطةٍ دماغية أودت بحياته.

وكان هذا الخطَّ الأول.

ولكن لم ينتهي الأمر هنا .

لقد أصبحت بعدها لقمةً سائغة في يد أبو سامر , بعد أن أمسك علي دليلاً يودي بحياتي .

حاول بعدها ابتزازي مراراً وتكراراً . ابتزازي بطرقٍ قذرة وتهديدي بشكل متكرّر.

لقد كان الأمر حملاً ثقيلاً أودى بي إلى كارثةٍ أخرى وكأن المصائب تتلو بعضها البعض ,

احتججت بعدم القدرة على النوم وطلبت من والدي الذهاب لأبو سامر كي يحضر لي شراباً مهدئاً.

عاد والشراب في يده وأخبرهُ أبو سامر بوضع بضع قطرات فقط منه للماء والنوم سيكون محتوماً.

لم أشرب منه حينها بل قمت بتخبئتهِ لليوم التالي لاصطاد من كان هو السبب في جلب هذا الدواء.

قررت التنزه حينها وكان الجو ماطراً قليلاً وقررت الذهاب إلى أبو سامر وبحوزتي ذاك الدواء اللعين .

كان حينها يجلس بالقرب من الموقد المشتعل,

قلت له أشعر بدوار طفيف وطلبت منه إحضار بعض الماء , ومع خروجه إلى غرفةٍ أخرى لإحضاره قمت بوضع نصف الكأس من ذاك الشراب مع كوب الشاي الموضوع أمامهُ.

عاد وشرب منهُ وبدأت أمارات النعاس تجري على وجهِ حتى نام تماماً , قمت بعضها بوضع الكثير من الحطب فوق الموقد وسحبتهُ إلى قربه وعدت بعدها إلى المنزل مباشرة ولم أخبر

أحداً عن تلك الزيارة المشئومة حينها.

عاد أبي في المساء حينها ليخبرنا باشتعال حانوت أبو سامر وهو نائمٌ فيه ممّا أودى بحياته.

وكانت تلك اللحظات كفيلة برسم الخط الثاني المائل بالفحم.

وكفيلة بانتقالنا من تلك القرية بعد كلِّ الأحداث التي أحاطتنا بها .

أما الخط الثالث ...

لقد كان ردة فعل لمحاولة إغوائي وإغراقي في الخطيئة والفشل في ذلك المخطط.

في أثناء عملي في مشغلٍ للخياطة كان عصام

المتزوج من امرأة تحبه كثيرا يتعامل معها ومع كل من حولها بفظاظةٍ مطلقة , ناهيك عن وجهه الكريه والقبيح.

لقد كان أغوى سابقاً صديقةً لي ولكن لم يستطع حالاً إليّ.

حاول إقناعي مراراً من خلال صديقتي المقربة ولكن في كل مرة كنت أرفض بشدّة أكثر من سابقاتها.

وبعد فشله الزريع بإقناعي حاول غصبي على ذلك بالإكراه .

وبعد صرفهِ لكل العمال وإعطائي عملا يستغرق وقتاً إضافياً تلك الليلة دخل إلى الغرفة التي كنت اعمل بها وقام بوضع يده في

وجهي لمنعي من الخروج , نظرت حلفي وجدت المكواة التي كنت أعمل بها , أخذتها وضربته بها على رأسه محاولةً منّي في إبعاده فقط فكانت تلك الضربةَ القاتلة.

رايتهُ يلفظ أنفاسهُ الأخيرة , قمت بجرّه إلى مكتبه ليظهر وكأنه وقع وارتطم رأسهُ بحرف المكتب , رششت بعض الماء بجانب المكتب وأغلقت باب المشغل وعدت أدراجي بعد معرفتي بقتله.

أمّا بالنسبة للخط الرابع الظاهر قليلاً على هذا الحجر , فقد رسمتهُ ببضع قطرات من الدمّ التي سرحت من رأسي نتيجة الخيانة اللئيمة التي ارتكبتها صديقتي بحقّي.

وبعد اللقاء الأول في حياتي الذي وهبني عمراً جديداً كان آخر شيء ألمحهُ في هذه الدنيا بعد تلك الفرصةِ المزيفة من القدر , لترسم بعدها نهايةً لخط حياتي المثقلة بالأوجاع .

فبعد أن أخبرت صديقتي جوى والدي بلقائي للشاب الذي ظننتهُ عمراً جديداً قام أبي بضربي بكلِّ وحشية , حتى أمي لم تستطع إفلاتي من يديه ,

وبعد تخطيطي للانتقام منها طلبت إحضارها من أمي لأقوم بتنفيذ ما خطتهُ لها ,

قمت بضربها بهذا الحجر ورميها من نافذة غرفتي وقمت بإلقاء نفسي من ذات النافذة بعدها .

لأجد نفسي هنا أماً لأربة خطوط اجتزأت منّي كلَّ ما أملك ,

أمي , أبي , عامر , حتى جوى أشعرُ بالحزن عليها قليلاً.

وبعد انتهاء الحديث بين جوى وناهد , ارتكزت كلٌّ منهما في فراشها .

وفي اليوم التالي صباحاً , جلسا في حديقة الغرفة وكان ثالثهما الحجر.

نظرت سمرة إلى تلك الشجرة في منتصف الحديقة ,

اقتربت منها وقامت بحفر بضعة سنتيمترات بيدها لتضع بعدها الحجر الذي يلخص حياتها ,

وكأنها تعلم بدنوّ أجلها.

وبعد دفنه مباشرة , قالت:

الذكريات تسكننا , تحيط بنا من كل حدٍّ وصوب , لا تتردد عن مناكفتنا ومشاغبتنا,

تتجولُ فينا ولا يهنأ لها بال إلّا واستفزت كلَّ مشاعرنا وأبقتنا في شرود.

الذكريات سلاح ذو حدّين فإما هي صورٌ جميلة تحيطها البهجة والسرور , وإما هي صورٌ يحيط بها الوجعُ والعذاب فتميتنا .

الذكريات هي ما افتعلناه وما قد حلمنا به , فلا ننساها ولا تغادرنا .

بتلك الكلمات ودّعت سمرة صخرتها لتعاود

لقائها في اليوم التالي ,

بعد أن قامت بالانتحار .

خنقت نفسها بشالٍ تملكه ناهد بعد أن لفّتهُ بشدة حول عنقها وتنهي ما بدأتهُ الحياة بها .

سمرة هي مثال لكلّ فردٍ فينا , ولكن الفرق يكمن في إفراطها , نعم لقد كانت مشكلتها في الإفراط.

فلا بدَّ أحياناً من الاستسلام للقدر .

فالمواجهة كلَّ مرة والتحدي تصبحُ أمراً عصيباً.

فهل جرّبت أن تحيد عن طريق الحياة ؟

أن تقف موقف المتفرّج , تراقب أيامك من بعيد وكأن الأمر لا يعنيك ,

تقف في زاوية نائية , تضجُّ بالعزلة , تنتظر أن تلتقط الأوراق المتساقطة من أعلى الأشجار لتصنع منها شراعاً لقارب نجاتك كي تهرب بهِ من كلِّ هزائمك المتوالية بشكلٍ متسارع حتى كأنها خرجت لك من بوابة القدر المجحف في حقّك.

ومع ذلك , تتغير النظرة إلى الحياة بين شخصٍ وآخر, بين الرجل والمرأة وبين الطفل والعجوز , لكن مهما كانت هذه الحياة مختلفة يجب القفز عن ذكرياتها الحزينة والاهتمام بكل ما يجلب الفرح فيها ,

الحياة بحرٌ عميق متلاطم الأمواج , ويجب عليك أن تتقن فن العوم ,وتتعلّم مهارة الصيد ,

الحياة معقدة وبسيطة في آن معاً, صديقة المتفائلين وعدوّة المتشائمين , لهذا يقضي البعض حياته من دون فائدةٍ تذكر ,

بينما يعيشها البعض الآخر بكامل جمالها وإنجازاتها ,ليبقى اسمهُ مخلدّاً في سجل من مرّوا بها .

فإذا كنت مدركاً تمام الإدراك أنّ الحياة بما رحبت زائلة , ستتخطى أحزانك بمفردك دون الحاجة إلى العدوانيةّ, ستقاوم الضغوطات النفسيّة المنتهجة ضدك, سيشتّد عودك جرّاء الضربات التي تلقّفتها طيلة عمرك.

ستفهم أن لك يومان في هذه الدنيا , يوم ولادتك ويوم تؤأد في الثرى ,وما بينهما عملك وما

قدّمت يمناك .

أدرك رضاء ربّك واعقد الصلح مع نفسك ...

أصلح ذات البين بينك وبين محيطك , وثق أنَّ لا شيء يستحق أن تستنزف لأجلهُ بقيةَ عمرك.......